**المحاضرة السادسة: الزجل**

يعتبر الزجل فن من الفنون الشعرية التي ظهرت في الأندلس وقد نظموا هذا الفن بلغة مجردة من الإعراب ومزدحمة بالكلمات التي هي من أصل محلي أو بربري , وهكذا أصبح لبلاد الأندلس فنا قائما بذاته, أطلق عليه فن الزجل. ولعل كل ذلك راجع إلى التعدد الثقافي الذي عرفته بلاد الاندلس , واختلاط الشعوب الأندلسية ببعضها, الأمر الذي أدى إلى هذا التنوع الثقافي ضمن هذه اللغة والأدب الواحد.   
و يمثل الزجل الفن الثاني المستحدث في الأندلس بعد الموشح ,وقد تباينت آرىء الؤرخين القدامى حول نشأة هذا الفن , وسوف نتطرق لهذا الجانب بعد الخوض في محاولة تحديد مفهوم الزجل لغة واصطلاحا.   
 **مفهوم الزجل لغة واصطلاحا:**   
 فإذا نقبنا عن كلمة الزجل في المعاجم العربية وجدنا أن معناها "اللعب والجلبة ورفع الصوت, وخص به التطريب , وانشد سيبويه:   
( له زجل كانه صوت حاد "" إذا طلب الوسيقة أو زمير  
وقد زَجِل زَجَلا, فهو زَاجِل,وزاجل, وربما أوقع الزجل على الغناء , قال   
وهو يغنيها غناء زاجلا ))  
والزجلُ :رَفْع الصوت الطرِب, و قال  
( يا ليتنا كنا حمامــي زاجِلِ .)" أما الزجل في الاصطلاح فهو ضرب من ضروب النظم يختلف عن القصيدة من حيث الإعراب والتقفية وقد كتب بلغة ليست عامية بحتة بل هي لغة مهذبة وإن كانت غير معربة.   
 **نشأة الزجل وتطوره:**   
 نشأ الزجل وترعرع في بلاد الأندلس , وعلى هذا فهو وليد البيئة الأندلسية فيها ظهر ومنها خرج إلى البيئات العربية الأخرى وانتشر فيها.  
 وإذا كان مؤرخو الشعر الأندلسي لم يشيروا من قريب أو بعيد إلى المخترع الأول لهذا الفن. فإننا نجد منهم من عرض بالذكر لأول من أبدع القول فيه.   
 فعبد الملك بن سعيد المتوفى سنة 680 هـ يقول عن ذلك :(" قيلت –الأزجال- قبل أبي بكر بن قزمان ولكن لم تظهر حلاها .ولا انسبكت معانيها, ولا اشتهرت رشاقتها إلا في زمانه,وكان في زمن الملثمين   
وعن ذلك أيضا يقول ابن خلدون المتوفى سنة 808هـ : " ولما شاع فن التو شيح في أهل الأندلس ,وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه , نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا , واستحدثوا فنا سموه بالزجل , والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد , فجاءوا فيه بالغرائب , واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة ."   
 ويتضح من كلام العلامة ابن خلدون أن الزجل الأندلسي نشأ تقليدا للموشح ,غير أنه لا يمكن الاعتقاد أن الشعراءلما عجزوا عن نظم الموشح , نظمو فنا بعامية أهل الأندلس وسموه "الزجل",لأن الذين انشأوا الزجل لأول مرة هم المثقفون الذين كانوا ينظمون القصائد الفصيحة, وينتمون إلى الطبقة الوسطى وليس العامة , وكان لاختراع مذا النظم تلبية لحاجة العامة في القول الرفيع والغناء المنسجم.  
  
 ويضيف ابن خلدون قائلا : " وأول من أبدع في هده الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان .وإن كانت قيلت قبله بالأندلس , ولكن لم تظهر حلاها , ولا انسبكت معانيها , واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه , وكان لعهد الملثمين . وهو إمام الزجالين على الإطلاق .قال ابن سعيد : ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب. قال : وسمعت أبا الحسن بن جحدر الإشبيلي ,إمام الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة ."   
 ومما تقدم ذكره يمكننا أن نخرج بحقيقتين : الأولى وهي أن أبا بكر بن قزمان المتوفى سنة 554 هـ والذي عاش في عصر المرابطين بالأندلس , هو أول من أبدع في فن الزجل , والحقيقة الثانية هي أن الأزجال قيلت بالأندلس قبل زمانه وقد أكد ابن قزمان الحقيقة الثانية بقوله في مقدمة ديوانه :( "ولقد كنت أرى الناس يلهجون بالمتقدمين , ويعظمون أولئك المقدمين ,و يجعلونهم في السماك الأعزل ,ويرون لهم المرتبة العليا والمقدار الأجزل ,وهم لا يعرفون الطريق ,ويذرون القبلة ويمشون في التغريب والتشريق ,يأتون بمعان باردة,وأغراض شاردة ,وألفاظ شياطينها غير ماردة . وبالإعراب وهو أقبح ما يكون في الزجل , وأثقل من إقبال الأجل.  
 من هنا يتضح لنا أن هناك من شعراء الأندلس من تقدموا أبا بكر بن قزمان ,وحاولوا الخوض في فن الزجل قبله ,وإن كانوا لم يبلغوا فيه ما وصل إليه ابن قزمان من الإجادة والإبداع في هذا الفن , مما أدى إلى احتلال الصدارة والشهرة في هذا المجال.وبذلك لم يستطيعوا أن يبلغوا فيه مبلغه , أو يجيدوه إجادته.   
وكما توالت الممالك والدول في بلاد الأندلس فكذلك هو حال الزجل في تلك البقاع العزيزة,حيث نجده مر بالعديد من الأدوارنوجزها فيما يلي :دور الأغنية الشعبية التي تأثرت إلى حدما ببعض أشكال الموشحات, وأطلق عليها إسم الزجل العامي. ودور ثاني وهو دور الشعراء المعربين الذين ظهروا في القرن الخامس.  
 أما الدور الثالث فهو الذي يمكن حصره في القرن السادس الذي شهد نهاية عصر ملوك الطوائف وبداية عصر المرابطين في الأندلس, وقد عرف الزجل في هذا العصر ازدهارا كبيرا.ومن زجالي هذا العصر الذين ذكرهم ابن خلدون نجد :عيسى البليدي ,وابو عمرو بن الزاهر الاشبيلي, وأبو الحسن المقري الداني, وأبو بكر بن قزمان إمام الزجالين على حد قول ابن خلدون. وفي منتصف القرن السادس توفي إمام الزجالين أبو بكر بن قزمان, وزالت من الأندلس دولة المرابطين التي عاصرها هذا الأخير, وحلت محلها دولة الموحدين, فكان عصر هذه الدولة بداية الدور الرابع من أدوار الزجل بزعامة الزجال أحمد بن الحاج المعروف باسم مدغليس الزجال.